



بالكذب وبالأرقام المزورة تتواصل الحملة على السوريين في لبنان: يأكلون خبزنا. يستهلكون كهرباءنا. يسرقون مهنتنا. يهددون أمننا. يلوّثون بيئتنا. يعتدون على نسائنا... نسب التزايد سيف الحملة البشّار. ذاك أنَّ العدد يخيف، وتحويله إلى صورة تترافق أمامنا يخيف أكثر. وما يُناسب إليه من أفعال، كالزحف والتسلل والتغلغل والانتشار والتّوسيع، يدبُّ الرعب في الأوصال.

البرابرة، إذًا، قادمون. وهم ولادون، خصوبتهم البيولوجية الريتيبة تمنع عنا خصوبة الطبيعة الـ0مبدعة. عَرَقُهم يحاصر عبيينا.

فوق هذا، رجولتنا سوف توضع على المحكّ: قدرتها على رد التحدّي، بالإنجاب أو بالسلاح، تغدو موضع امتحان. لكنْ ماذا نفعل وهم يتناسلون كالفئران، فيما اللبوة لا تنجب إلاً أسدًا واحدًا!

أين سمعنا هذه العبارة من قبل: يتناسلون كالفئران؟ في الأدبّيات الفاشيّة وأدبّيات البيض العنصريّين في الجنوبيّن الأميركيّي والأفريقيّ. هناك أيضًا، «يتعلّق» الأصليّ و«يتجوّه» مقابل «الفارّيّة» التي «تتقزّم» و«تُقزّم»، بترامكها الكميّ الممحض المنزّه عن النوعيّة، وبما تختزنه من عنف وفقر وأمراض مُعدية، ومن طفيليّة تمتّص دمنا النقيّ.

وسائل الإعلام المكتوبة والمرئيّة ذات الـباع في التحرّيض، تتحدّث عن أنّا نتناقص وأنّهم يتزايدون. تمنح هذا «الخبر» صدارتها. المؤسّسات الإعلاميّة تتحوّل، في عالم الفضيّلة هذا، إلى تحسين أحوالها المتدهورة باللعب على غرائز ما دون الصفر، باستجلاب الزبائن الذين يختلط عليهم الإعلام بالإثارة. إنه إعلام يخاطب أصحاب المخيّلة الفارّيّة.

نعم، من دون إنكار أو مكابرة، هناك مشكلة متعددة الأبعاد ترتبّت على اضطرار مئاتآلاف السوريين إلى النزوح عن بلدتهم إلى بلدنا. والمشكلة كانت لتنشأ في أيّ وطن صغير يتعرّض لنزوح كبير، خصوصاً في ظلّ أزمة اقتصاديّة وشحّ في المعونات وفساد وتفاهة في التخطيط الرسميّ، وهذا فضلاً عن مواضِع معتقد تخصّ الأنظمة والبلدان والتجارب. لكنّ ما يقترحه العنصريّون يبقى أسوأ أنماط التعامل و«التفكير». هنا، يصبّ تضخيم الأرقام والولادات الزيت على نار المشكلة فيزيدوها إشكالاً ويُضعف احتمالات تذليلها. ولأنّ العدد يُشعل الحرائق، صار لغةً حصريةً لأمراء الخوف والتخييف بشعبيّيّهم وعنصريّيّهم وفاشيّيّهم على اختلافهم. إنّه لعبّة لوبن وترامب الأثيرة. لقد سبق أن لعبناها مع فلسطينيّ لبنان: أخفاهم وأخفا اللبنانيّين منهم فاندفعوا إلى التسلّح ثمّ تسلّحنا في وجه تسلّحهم وكان ما كان...

00

لكنْ ينبغي أن لا ننسى سببين بما إسهامنا الخاصّ في العنصرية: أنّ العلاقات بين طوائف اللبنانيّين متربّدة جداً فيما ألحان السعادة والحبّ قويّة جداً. هذا التكاره المكبوت نزّيّت آله ببعض الدم المعلن والسهل، دم الآخرين. إنّا محتاجون إلى التشارك في صيد الطرائد بين الفينة والأخرى. ونحن، اللبنانيّين، أخصائين في هذا: بعد اتفاق الطائف جلسنا على صدور الفلسطينيّين المحشوريّن في مخيّماتهم، المهيئة لنا، وتبادلنا التهاني.

ثمّ إنّ البُعد العنصريّ في طائفتنا لم يكفّ في السنوات الأخيرة عن النمو. فشلنا في التعايش، بسبينا وبمعونة جوارنا العسكريّ، جعل الاختلاف أكثر مراتبةً وحول كلّ آخر عدوّاً.

إلا أنّ قسوة العنصرية التي يبديها بعضنا أسوأ من العنف العادي: إنّها لا تملك الأسباب التي قد يملكها العنف لكي يعنف، ولا تتوقف عند إنجاز أهداف ملموسة قد يتوقف العنف عندها. والقاسي طبعاً أجبين من العنيف. ذاك أنّ العنصريّين بيننا الذين يصوّرون السوريّ فأراً، كان معظمهم فئراناً فعلّيّن أمام جيش الأسد حين كان في لبنان. ومعظمهم لا يقولون اليوم إنّ بشّار هو المسؤول الأول عما اضطّرّ شعبه إلى الإقامة في أرضنا التي تتحوّل أرضاً بخيلاً ولئيمة تحرسها الريح الصرفاء. وأغلب هؤلاء لا يجرؤون على إعلان مسؤوليّة «حزب الله»، الذي يمثلنا في الحكومة، عن إحراق قرى وبلدات سوريّة، وتوسيع ظاهرة النزوح وبالتالي.

وهذا من صفات الأخلاق الفقيرة التي لا تسيء إلى السوريّين بقدر ما تسيء إلى لبنان الذي لا معنى له من دون الحرية والانفتاح – الانفتاح لا على الغنيّ وحده، بل على الفقير أيضاً، ولا على المصطاف والسائح فحسب، بل على النازح واللاجئ كذلك. فإذا شكّل الانغلاق مقتلاً، فأيّ مقتل يشكّله بذلك كلّ هذا الجهد المجبول بالرياء والتزوير لتبرير الانغلاق، بل لتمجيده أيضاً؟

صحيفة الحياة

المصادر: